



لأنه يُمكنه تقدير مدى الانسحاب الروسي من سوريا، وحجمه، وهو الذي أعلن عنه رئيس الأركان، فاليري غيراسيموف، ذلك أن روسيا سبق وأعلنت مرتين سابقتين عزمها الانسحاب ولم يحصل، بيد أن مؤشرات عديدة تجعل تصريح هذا الأمر ممكناً، كما أن طرح هذه المسألة في هذا الوقت بالتحديد، وإن لم ينته بانسحاب روسيا فعلياً، هو رسالة منها أنها ليست مهتمة بـكامل سوريا.

ثمة أسباب كثيرة تدفع الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، إلى اتخاذ هذا القرار، خصوصاً أنه ثبت أن الكرملين، وعلى عكس مما ورد في تحليلات وتقديرات كثيرة، كان قد درس كل خطوة بعناية واهتمام وتدقيق واسع، بل بالغ في الحسابات أحياناً، على الرغم من الجرأة التي ظهر عليها، وعلى الرغم من أن الأمور في سوريا كانت أن تنزلق في محطات كثيرة نحو صراع إقليمي ودولي كبير.

ولعل من أهم الأسباب أن بوتين صنع ما يعتقد أنها مهمة كبيرة جداً، وهي تثبيت حليفه في الحكم وإنها قوى المعارضة، وربطه الكثير من المكونات العسكرية والسياسية السورية المعارضة بعلاقات مع موسكو، وهذا الوضع يطمئنه إلى استحالة ظهور تهديدات محتملة ضد النظام، أقله في المديين القريب والمتوسط، بعد أن تستخدم سياسة تجميد الصراع، وتحويل الفعالية والمبادرة إلى مقلب نظام الأسد وحلفائه، كما أن بوتين ضمن قطع خطوط الإمداد الخارجية للمعارضة، وأصبح من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، إعادة динاميات السابقة إلى وضعها.

ومن بين الأسباب الدافعة لانسحاب روسيا إدراك قياداتها أن البقاء في سوريا سيرتب عليهم تكاليف وأعباء لا داعي لها، أو بمنطق الحسابات السياسية والاقتصادية غير مجده، بعد أن أمنت روسيا قواها في الساحل السوري وسيطرة شركاتها على حصن النفط والغاز، كما أن سوريا ستكون بحاجة لإعادة إعمار، وربما يدفع بقاء روسيا أطرافاً دولية وإقليمية كثيرة إلى الامتناع عن المساهمة في تمويل إعادة الإعمار، وهذا من شأنه إخراج روسيا سياسياً وتوريطها بالتزاماتٍ لا تقدر عليها، بالإضافة إلى أن روسيا تسعى إلى إدخال الأمم المتحدة، بالشروط الروسية طبعاً، لكن ذلك من شأنه إظهارها عاماً مساعدةً في صنع السلام، وطرفاً فاعلاً في النظام الدولي.

بيد أن أحد أهم الأسباب التي تدفع روسيا إلى اتخاذ هذه الخطوة قناعتتها، وربما وجود معطيات لديها، عن احتمال نشوب صراع إقليمي، لا تزيد أن تكون طرفاً فيه، خصوصاً أن قدرتها في التأثير على أطرافه منخفضة، وهي ترى وتسمع طبول الحرب تقع بين إسرائيل وإيران، كما راقبت روسيا تعقد الأزمة إقليمياً، ونفذت جميع فرص الحل، وما يهمها أن تبقى الحرب بعيدة عن قواها ومصالحها الإستراتيجية. وفي هذا الإطار، هي مطمئنة على نظام الأسد، لأنه العنوان الوحيد الذي تتفق عليه إيران وإسرائيل وأميركا، تجنبًا لما تقول تقديراتهم، حصول الفوضى جراء رحيله.

باتت إيران متشجعة لتقليل الوجود الروسي، وانكفاء إلى الساحل السوري، بعد أن أنجزت المهمة، وزالت المخاطر المحدقة، ولعل كلام المسؤولين الإيرانيين عن عزمهم تحرير الرقة وإدلب، على الرغم من أنها تدخلان في معادلات إقليمية دولية، شاركت روسيا في صنعها، دليل على أن إيران تسعى إلى صياغة معادلات جديدة لمرحلة ما بعد السيطرة الروسية، وتثبيت ركائز السيطرة الإيرانية.

وتتوارد إيران من احتمالات إقدام روسيا على عقد صفقاتٍ على حساب المصالح الإيرانية في سوريا، سواء مع تركيا أو إسرائيل وأميركا، بغرض المقاومة على ملفاتٍ لهم روسيا في أوكرانيا، أو فيما يخص العقوبات الاقتصادية الأمريكية والأوروبية.

لا يختلف هذا السيناريو، في حال تحققه، عن السلوك الأميركي في العراق وأفغانستان، حين دمرت القوة الأميركيّة القوى المعادية لإيران، وسلمتها البلدين على طبق من فضة، مع فارق بسيط، هو أن إيران في سوريا جهزت بنية قوية على مدار سنوات من الصراع، وباتت لديها جيوش وقواعد وخطوط إمداد علنية، في بلدٍ بات أغلب سكانه بين نازح ومهاجر ومعتقل ومخفي، ولا يملكون ما يسد رمقهم لليوم التالي. وصار تأميم خيز الوجبة التالية أكبر همهم، فيما إيران تدق على مقاتلتها ومناصريها الأموال الطائلة، ليترفغوا لإخضاع السوريين، والسيطرة على بلادهم.

ومن نك الدنيا على السوريين أنهم باتوا يرکون إلى الرهانات، بعد أن قطع الصديق والشقيق كل أسباب الدعم عنهم، وتركهم في مواجهة قوى لا ترحم، والرهان اليوم على أن تقلب المقادير، وتأتي الرياح بحرب إقليمية تغير الواقع، وتنسفه من جذوره وتعيد المعادلات إلى ما كانت عليه، أو أن تضغط أميركا باتجاه إخراج إيران من سوريا، ألم يقل الأميركيون أنهم بقصد تصميم استراتيجية مواجهة لإيران في سوريا؟.

لكن تجاربنا في التاريخ المعاصر تكشف خُداعَ مثل تلك الرهانات، فالحروب الكلاسيكية صارت أمراً بعيد الحصول، بدليل أن أميركا منذ سنوات تحارب بطائرات الدرون والعمليات الخاصة والوكلاء، وإسرائيل تتبع نمط الضربات الجراحية، ولدى إيران قدرة هائلة على التظاهر بالتراجع أمام الخصم وعدم منحه المبرر الكافي لشن الحروب عليها، أكثر من مئة غارة

إسرائيلية على حزب الله والأسد لم تلقي الاهتمام والرد.
وبعد، السوريون لن يكونوا إلا همّاً عربياً، وإن نامت الأمة، فمن يستيقظ لنصرتهم.. يا ملح الأرض؟.

المصادر:

العربي الجديد